235 - ـ فصل : ليس في الدنيا حقيقة لذة .

كنت أسمع علي بن الحسين الواعظ يقول على المنبر : [و ا لقد بكيت البارحة من يدي نفسي] .

فبقيت أنا أتفكر و أقول : أي شيء قد فعلت نفس هذا حتى يبكي ؟ .

هذا رجل متنعم له الجواري التركيات و قد بلغني أنه تزوج في السر بجملة من النساء و لا يطعم إلا الغاية من الدجاج و الحلوى .

و له الدخل الكثير و المال الوافر و الجاه العريض و الأفضال على الناس .

و قد حصل طرفا من العلم و استعبد كثيرا من العلماء بمعروفه و راحته دائمة الندى فما الذي يبكيه ؟ .

فتفكرت فعلمت أن النفس لا تقف عند حد بل تروم من اللذات ما لا منتهى له كلما حصل لها غرض برد عندها و طلبت سواه فيفنى العمر و يضعف البدن و يقع النقص و يرق الجاه و لا يحصل المراد .

و ليس في الدنيا أبله ممن يطلب النهاية في لذات الدنيا و ليس في الدنيا على الحقيقة لذة إنما هي راحة من مؤلم .

فالسعيد من إذا حصلت له امرأة أو جارية فمال إليها و مالت إليه و علم سترها و دينها أن يعقد الخنصر على صحبتها .

و أكثر أسباب دوام محبتها ألا يطلق بصره فمتى أطلق بصره أو أطمع نفسه في غيرها فإن الطمع في الجديد ينغص الخلق و ينقص المخالطة و يستر عيوب الخارج فتميل النفس إلى المشاهد الغريب و يتكدر العيش مع الحاضر القريب كما قال الشاعر : .

(و المرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الحور موقوف على الخطر) .

(يسر مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبا بسرور عاد بالضرر) .

ثم تصير الثانية كالأولى و تطلب النفس ثالثة و ليس لهذا آخر بل الغض عن المشتهيات و يأس النفوس من طلب المستحسنات يطيب العيش مع المعاشر .

و من لم يقبل هذا النصح تعثر في طرق الهوى و هلك على البارد و ربما سعى لنفسه في الهلاك العاجل أو في العار الحاضر فإن كثيرا من المستحسنات لسن بصينات و لا يفي التمتع بهن بالعار الحاصل .

و منهن المبذرات في المال و منهن المبغضة للزوج و هو يحبها كعابد صنم .

و أبله البله الشيخ الذي يطلب صبيه و لعمري إن كمال المتعة إنما يكون بالصبا كما قال القائل : .

(فقلت بنفسي النساء الصغار) .

و متى تكن الصبية بالغة لم يكمل الاستمتاع فإذا بلغت أرادت كثرة الجماع و الشيخ لا يقدر .

فإن حمل على نفسه لم يبلغ مرادها و هلك سريعا .

و لا ينبغي أن يغتر بشهوته الجماع فإن شهوته كالفجر الكاذب .

و قد رأينا شيخنا اشترى جارية فبات معها فانقلب عنها ميتا .

و كان في المارستان شاب قد بقى شهرين بالقيام فدخلت عليه زوجته فوطئها فانقلب عنها ميتا .

فبان أن النفس باقية بما عندها من الدم و المنى فإذا فرغا و لم تجد ما تعتمد عليه ذهبت .

و إن قنع الشيخ بالاستمتاع من غير وطء فهي لا تقنع فتصير كالعدو له .

فربما غلبها الهوى ففجرت أو احتالت على قتله خصوصا الجواري اللواتي أغلبهن قد جئن من بلاد الشرك ففيهن قسوة القلب .

و قبيح بمن عبر الستين أن يتعرض بكثرة النساء فإن اتفق معه صاحبة دين قبل ذلك فليرع لها معاشرتها و ليتم نقصه عندها تارة بالإنفاق و تارة بحسن الخلق .

و ليزد في تعريفها أحوال الصالحات و الزهدات و ليكثر من ذكر القيامة و ذم الدنيا و ليعرض بذكر محبة العرب فإنهم كانوا يعشقون و لا يرون وطء المعشوق كما قال قائلهم : .

(إنما الحب قبلة ... و غمز كف و عضد) .

(إنما العشق هكذا ... إن نكبح الحب فسد) .

فإن قدر أن يشغلها بحمل أو ولد عرقلها به فاستبقى قوته في مدة اشتغالتها بذلك .

فإن وطىء فليصبر عن الإنزال حفظا لقوته و قضاء لحقها .

و قد قيل لبشر : لم لم تتزوج ؟ فقال : على ماذا أغر مسلمة و قد قال ا D : { و لهن مثل الذي عليهن بالمعروف } .

و المسكين من دخل في أمر لم يتلمح عواقبه قبل الدخول و رأى حبة الفخ فبادر طالبا لها ناسيا تعرقل الجناح و الذبح .

مجموع ما قد بسطته حفظ البصر عن الإطلاق و يأس النفس عن التحصيل قنوعا بالحاصل خصوصا من قد علت سنه و علم أن الصبية عدوة له متمنية هلاكه و هو يربيها لغيره .

و في بعض ما ذكرته ما يردع العاقل عن التعرض لهذه الآفات نسأل ا D توفيقا من فضله و

عملا بمقتضى العقل و الشرع إنه مجيب قريب